

التفسير اللغوى للقرآن الكريم (نشأته ومكانته)

إلياس بشير الندوي *

برهان محمد ﷺ القرآن، وبرهان الأنبياء المرسلين قبله العصا التى تشق البحر، وأحياء الموتى وبراء الأكمه والأبرص- وكانت معجزاتهم مؤتة لا نستطيع ان نرى ونشاهد الآن بأى العين، لأن الأنبياء السابقين أرسلوا الى اقوامهم فقط.

ولكن نبى الله محمد ﷺ بعث الى كافة الناس، ومعجزته القرآن حجة عقلية ثابتة خالدة باقية مابقيت الدنيا، مناسبة للبيئة الاجتماعية المرسل اليها، ووثيقة بيان للبشرية للعرب فى جزيرتهم وللعالمين من بعدهم. لقد كان نزول القرآن بعثاً جديداً اهتز له كل شئ، تغيرت به قيم، وصححت به مفاهيم، وحيث بفضل اللغة، واندثرت آخر- وكان فضل الله عظيماً على اللغة العربية، حيث أنزل بلسانها القرآن- فحفظت بحفظه، ومجدت بمجده. "وإنه لتنزيل رب

العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين" ولذلك كان القرآن محلّ اهتمام عظيم من المسلمين فى صدر الدعوة الاسلامية، وزاد الاهتمام فيما بعد- فكتبت المؤلفات والدراسات حوله، فمن هذه الدراسات: اللغوية بأنوعها البلاغية والصرفية والنحوية ... وكذلك

* باحث الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

الفقهية، والعقلية، والصوفية، والاصلاحية والدعوية وما إلى ذلك. فلم يدع العلماء موضوعاً يتعلق بالكتاب العزيز الا وتناولوه بحثاً وتمحيصاً وألفوا في ذلك المؤلفات القيمة العديدة، فكانت التفاسير القرآنية أحد أعمدة هذه المكتبة.

التفسير:

ان العمل بتعاليم القرآن الكريم، لا يكون إلا بعد فهم القرآن الكريم وتدبره، والوقوف على ما حوى من نصح ورشد. كما تقول الدكتورة فاطمة مارويني: "ان تفسير كتاب الله تعالى هو كالنور الذي ينير لقارئ القرآن المعانى الجميلة، فيبينها له ويوضحها، وهو كالمرشد والدليل الذى يمسك بيد التالى لكتاب الله تعالى، فيدله على موضع الإعجاز، ومواطن البلاغة" (١)

قال الزركشى (م ٧٩٤هـ): التفسير علم يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج احكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ - (٢) وقيل هو ايضاح مراد الله بقدر الطاقة البشرية، ولا يجوز فيه الاعتماد على الظنون والاستحسان، والقول على الله بغير اذنه، قال تعالى: "قل الله أذن لكم أم على الله تفترون" (يونس: الآية ٥٩) (٣)

التفسير اللغوى:

المقصود باللغوى هنا اللغة العربية، واللغة العربية تضمّ عدداً من العلوم تسمى علوم اللغة العربية وهي علم الصوت، وعلم الصرف، وعلم النحو، وعلم المعجم، وعلم البلاغة، وغيرها من العلوم الفرعية. وعزّف الدكتور مساعد الطيّار التفسير اللغوى بأنه "بيان معانى القرآن بما ورد فى لغة العرب. أما الشقّ

الأول من التعريف، وهو بيان معانى القرآن: فانه عام يشمل كل مصادر البيان في التفسير؛ كالقرآن، والسنة، وأسباب النزول وغيرها. وأما الشق الثانى منه، وهو بما ورد بلغة العرب: فانه قيد واصف لنوع البيان الذى وقع لتفسير القرآن، وهو ما كان طريق بيانه عن لغة العرب".^(٤) والتفسير اللغوى قسمان: قسم خاص، وهو الذى يتعلق بتفسير الألفاظ الغريبة والغامضة تفسيراً لغوياً على ضوء معناها المعجى. والقسم الآخر عام، وهو التفسير اللغوى الذى يتناول القضايا اللغوية العامة كالتفسير بلحاظ النحو والصرف والدلالة وغيرها.

مكانة التفسير اللغوى:

هذا من سنة الله أنه يرسل الرسول بلسان قومهم، وينزل عليهم الكتاب بلسانهم، ليفهموا عن الله خطابه ومراده، فيؤمنون به ويصدقونه، ولو كان بغير لغتهم لاحتاجوا الى ترجمان يبين لهم. ولما كان الأمر كذلك كانت لغة العرب من أهم المصادر وأوثقها في معرفة كلام الله تعالى، لأن عدم التضلع في علوم اللغة العربية افراداً وتركيباً واعراباً واشتقاقاً يؤدي الى الوقوع في الخطأ أوالى تحريف الكلم عن مواضعه. يقول ابن فارس: "إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن، والسنة، والفتيا بسبب، حتى لا غناء بأحد منهم عنه، وذلك بأن القرآن نازلٌ بلغة العرب، ورسول الله ﷺ عربى، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله جلّ وعزّ، وما في سنة رسول الله ﷺ من كل كلمة غريبة، أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بدءاً" ^(٥) وكما قال تعالى: [انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون] (يوسف) وقال: [بلسان عربى مبين] (الشعراء: ١٩٥)

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: [الذى يقرأ القرآن ولا يحسن

تفسيره كالأعرابي يهذ هذا الشعر هذا] ^(٦) قال مجاهد: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب" ^(٧) - وجعل السيوطي العلوم التي يحتاج إليها المفسر حتى يكون مفسراً خمسة عشر علماً منها سبعة علوم من علوم اللغة وهي:

أن يكون المفسر عارفاً باللغة ومعاني مفرداتها، ومدلولاتها بحسب الوضع. وأن يكون عارفاً بالنحو والتصريف، والاشتقاق وأن يكون عارفاً بعلم المعاني والبيان والبديع، وهذه العلوم الثلاثة الأخيرة تسمى علوم البلاغة. ^(٨)

لذلك حرص المفسرون كل الحرص في هذا العلم، (اللغة العربية وآدابها) واتخذوا منه أداة لتوضيح الآيات بل جعلوه من آلات صناعتهم، فنشأت عندها العلاقة بين علم اللغة وعلم تفسير القرآن علاقة واجبة ومتلازمة. ولذا نرى أغلب مناهج التفسير، كان التفسير اللغوي ركناً أساسياً من أركانها، فنرى الطبري في تفسيره اعتمد على التفسير باللغة، و(جامع البيان) يعد تفسيراً بالمأثور في أغلبها. مثلاً في تفسير قوله تعالى [قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا] (يعنى وجدنا... وكما حدثنا بشر بن معاذ ... عن قتادة، أى ما وجدنا عليه آباءنا" ^(٩) فهو هنا فسّر (ألفينا) تفسيراً لغوياً بالمأثور عن الصحابة. وكان جميعهم أى المفسرين يوظفون علمهم بالعربية في تفسير النص واستنباط معناه ودلالة تراكيبه وأساليبه. والمنهج البياني يعتمد على اللغة، بل هو فرع من التفسير اللغوي، والمنهج العقلي يعتمد على اللغة، والمنهج العلي يعتمد على اللغة أيضاً، والمنهج الفقهي كذلك ليس له غنى عنها.

والمقصود أن كل من فسّر القرآن وهو جاهل بلغة العرب، أو سالك غير طريقها، فإنه قد وقع في الخطأ الأكيد، وجانب الصواب. فكان لزاماً على كل

من يريد الوقوف على معانى القرآن، والمراد منه أن يقف على لغة العرب وأساليبها في الكلام والتعبير عن المعنى لأن من اراد تفسيره وهولا يعرف اللغة التي نزل بها القرآن، فانه لا شك سيقع في الزلل بل سيحرف الكلم عن مواضعه، كما وقعوا الذين في قلوبهم زيغ فحملوا القرآن على مصطلحات أومدلولات غيرعربية-

ولكن المعرفة باللغة العربية ليست هي المصدر الوحيد لتفسير القرآن، بل هي جزء من علم التفسير، مع أن حيزه كبيرٌ، ولكن بمجرد هالا تستقلّ به. فلا بد للمفسر أن يكون له معرفة من مصادر أخرى، يعتمد عليها في تفسير القرآن.

نشأة التفسير اللغوى:

منذ أن نزل الكتاب الحكيم على قلب النبي الكريم ﷺ، وتلقته الأمة منه ﷺ، أقبل العلماء عليه يتلونه حق تلاوته، ويكشفون للناس مكنون حكمته، ويطلعونهم على ما أودع الله تعالى فيه من الأحكام والمعارف والأسرار، كلٌّ حسب طريقتة ومنهجه، وما آتاه الله تعالى من إمكانيات، وما منحه من قدرات. فاستمرت حركة التفسير في مسيرتها التاريخية على مدار القرون والأجيال حتى أيامنا هذه، وقد ظهرت دراسات فذة، وأعمال ناضجة على يد المفسرين، ذات اتجاهات مختلفة لإختلاف الينابيع التي يستقى منها أصحابها.

ومن أشهر وأبرز تلك المناهج. المنهج الأثرى وهو المسمى "التفسير بالمأثور" والمنهج العقلى وهو المسمى "التفسير بالرأى، والمنهج الإشارى وقد يسمى بالمنهج الصوفى الفيضى. والمنهج الفقهي، والمنهج العلمى على اعتبار أن القرآن قد اشتمل على علوم كثيرة، وقد توسع هذا العلم في عصرنا، والمنهج اللغوى، والمنهج البيانى، ... وما الى ذلك من مناهج اخرى.

ومن بين هذه المناهج والاتجاهات "التفسير اللغوي" يمثل أساساً قوياً من الأسس التي بنى عليها المفسرون مناهجهم في التفسير واعتمدوا عليها اعتماداً واضحاً في تناوله لكتاب الله العزيز. ولا يخفى على المشتغلين بالدراسات القرآنية، أن رسول الله ﷺ كان هو المفسر الأول لكتاب الله تعالى كما أخبر عن ذلك القرآن بقوله تعالى [وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] فكثيراً ما كان الصحابة يرجعون إلى رسول الله ﷺ فيما أشكل عليهم من كتاب الله فيوضحه لهم، ويجيبهم على سؤالهم، ومعظم القرآن لم يكن بحاجة إلى تفسير في زمن الصحابة، لفهمهم له.

وكانت أسئلة الصحابة عن معاني ألفاظ القرآن التي وردت بغير لهجتهم، أو لم تكن مستعملة في زمنهم، أو أن القرآن أراد بها غير المعنى المألوف منها^(١٠). فسّر الرسول ﷺ القرآن تفسيراً لغوياً ولكن قليلاً ونادراً، مثلاً فسّر الظلم بالشرك^(١١) في قوله تعالى [ولم يلبسوا إيمانهم بظلم] وفسّر "الخيطة الأبيض" ببياض النهار و"الأسود" بسواد الليل^(١٢). قال مساعد الطيار: "لقد استقرت التفسير النبوي للقرآن الكريم ووجد أنه ﷺ لم يفسر للصحابة من ألفاظ القرآن إلا ما احتاجوا إليه، وهو قليل، ومن ذلك تفسيره معنى الوسط في قوله تعالى: [وكذلك جعلناكم أمة وسطاً] (البقرة: الآية: ١٤٣) قال: الوسط: العدل - (١٣)

وبعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، توّلى العلماء من الصحابة مهمة التفسير من بعده ﷺ، إذ هم أهل اللسان الذين نزلوا القرآن بلغتهم، مع ما منحهم الله من اتقاد الصريحة وصفاء النفوس وطهارة القلوب، وما كانوا يشاهدونه من أحوال الوحي وأسباب النزول- تشير الروايات التي بين أيدينا إلى أن البواكير الأولى لنشأة التفسير اللغوي كانت على يد أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب فهو الذى نبّه الناس إلى تحقيق اللغوى لبعض مفردات القرآن، وما روى من أن عمر كان على المنبر فقرأ [أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوفٌ رَحيم] ثم سأل عن معنى التخوف، فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص، ثم أنشده:

تخوف الرجل منها تامكاً قرداً كما تخوّف عودَ النبعة السفينُ
عندئذ قال عمر مقولته المشهورة المذكورة المنبهة لأهمية حفظ أشعار
العرب لفهم الكتاب الكريم: "أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم،
فإن فيه تفسير كتابكم"^(١٤) وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن
عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في
بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، والآخر يقول: أنا ابتدأتها^(١٥) ولقد عدد السيوطى
في الاتقان من اشتهرهم بالتفسير من الصحابة، وهم الخلفاء الأربعة وابن عباس
وابن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن زبير
رضى الله عنهم وجزاهم عنا أعظم الجزاء.^(١٦)

ويعد حبر الأمة عبد الله بن عباس من أعلام التفسير اللغوى، فقد توسع
فيه مع توسعه في دراسة شعر العرب ولغتهم، وأقوالهم وأمثالهم، واستعان في
تفسير الكثير من غريب القرآن الكريم بالشعر العربى، ما كان منه جاهلياً، وما
ردّته ألسنة الفحول من شعراء صدر الاسلام. قال الإمام السيوطى في الاتقان:
"قال ابن عباس: الشعر ديوان العرب فإذا خفى علينا الحرف من القرآن . الذى
أنزله الله بلغة العرب . رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منها."^(١٧) ويعد
كتابه (مسائل نافع بن الأزرق) الذى جمعه بعض تلاميذه أو من جاء بعده،
فهولم يخطه بيده ولم يمله . أول شرح معجى لألفاظ القرآن الكريم. ومن

سؤالات نافع: قال أخبرني عن قول الله عزوجل: [عن اليمين وعن الشمال عزين] (المعارج: الآية: ٣٧) قال ابن عباس: العزون: حَلَقَ الرَّفَاقِ- قال نافع : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال ابن عباس: نعم- أما سمعت عبید الأبرص وهو يقول :

فجاؤا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزيना^(١٨)

واستمرّ هكذا في جميع السؤالات- ثم تطور التفسير اللغوي بعد ابن عباس، فأخذ مناحي أخرى كالتفسير اعتماداً على الصرف والنحو وغيرهما، وهو مانجده في كتب غريب القرآن ومجازه، ومعانيه-

ومن المعلوم أن الصحابة لم يستقروا جميعاً في بلد واحد بل تفرقوا إلى الأمصار، حاملين ماوعوه من العلم مما حفظوه عن رسول الله ﷺ، فجلس إليهم كثير من التابعين، يأخذون العلم عنهم وينقلونه لمن بعدهم، فقامت في هذه الأمصارالمختلفة مدارس علمية على يد الصحابة، تتلمذ فيهاكثيرمن التابعين- أشهرهذه المدارس في مبلغ علمنا ثلاث: مدرسة التفسير بمكة المكرمة قامت هذه المدرسة على يد عبد الله بن عباس. مدرسة التفسير بالمدينة قامت على يد أبي بن كعب. مدرسة التفسير بالكوفة قامت على يد عبد الله بن مسعود.

وصنع التابعون مثل صنيع الصحابة وأضافوا إلى التفسير ما تطلبه أيام عصرهم، فتعددت مصادره وأنوعها حتى عدّها مساعد الطيار بخمسة أنواع، وهي: كتب غريب القرآن، وكتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة، وكتب معاني القرآن، ومعاجم اللغة، وكتب التفسير، وكتب أخرى لها علاقة بالتفسير ككتب الاحتجاج للقراءة، وكتب الشروح الشعرية، وكتب الأدب^(١٩).

ومن ثم تسلسلت حركة التأليف في تفسير القرآن عبر القرون حتى أيامنا

هذه وستبقى كذلك ما بقى الزمان وتعاقب الملوان- وهكذا لقي كتاب الله الخالد - القرآن الكريم - من الإهتمام البالغ مالم يظفر به أى كتاب آخر حفظاً واستذكراً، تجويداً وترتيلاً، شرحاً وتفسيراً، تعبداً وتبركاً، اعزازاً واكباراً، تفكيراً تدبراً، استنباطاً لأحكامه، وتجلياً لشرائعه، وتخليقاً بأخلاقه، وبحثاً إلى الطرق الموصلة إلى معرفة معناه-

الهوامش:

١. دكتورة فاطمة مارويي : التفسير والمفسرون. ص: ٢٤
٢. الزركشي : البرهان في علوم القرآن. ج ١. ص: ١٣
٣. الزرقاني: مناهل العرفان. ج ٢ ص: ٦
٤. دكتور مساعد الطيار: التفسير اللغوي للقران الكريم. ص: ٣٨
٥. المصدر السابق: ص: ٤١
٦. جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن. ج ٢ ص: ٢٢٥
٧. المصدر السابق: ج ٢ ص: ١٨١
٨. المصدر السابق: ج ٢ ص: ٢١٣-٢١٤
٩. الطبري : جامع البيان. ج ٣ ص: ٢٣
١٠. مساعد مسلم: مناهج المفسرين. ص: ١٢٣
١١. ابو حاتم: تفسير القرآن العظيم. ١٣٣٢
١٢. المصدر السابق: ص: ٣١٨
١٣. دكتور مساعد الطيار: التفسير اللغوي للقران الكريم. ص: ٦٢
١٤. عبد القادر محمد صالح : التفسير المفسرون في العصر الحديث. ص: ٨٢
١٥. المصدر السابق: ص: ٨٢
١٦. جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن. ج ٢ ص: ١٢٢٤
١٧. دكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين. ص: ٢٢٣
١٨. المصدر السابق: ص: ٢٢٢
١٩. دكتور مساعد الطيار: التفسير اللغوي للقران الكريم. ص: ١٨٢

* * *